المدخـــل

ويشمل:

تعريف النبى والرسول:

النبوة والنباوة: ما ارتفع من الأرض. فإن جعلت النبى مأخوذًا منه أى أنه شرف على سائر الخلق، فأصله غير الهمز وهو فعيل بمعنى مفعول[١]. فالنبى على هذا هو الرفيع المنزلة عند الله تعالى.

والرسول: هو الذى يتتابع عليه الوحى من رسل اللبن إذا تتابع دره وكل رسول لله عز وجل نبى، وليس كل نبى رسولاً له.[٢].

الفرق بين النبى والرسول:

النبى من أوحى الله تعالى له بالوحى سواء أمر بتبليغه أو لا. أما الرسول فهو من أوحى الله إليه برسالة ليبلغ بها غيره.

يقول ابن العز شارح الطحاوية:

"وقد ذكروا فروقًا بين النبى والرسول وأحسنها: أن من نبأه الله بخبر السماء إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبى رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبى وليس برسول، فالرسول أخص من النبى، فكل رسول نبى وليس كل نبى رسولاً"[٣].

---

(١) مختار الصحاح (ص ٦٤٤).

(٢) أصول الدين للبغدادى (ص ١٥٤).

(٣) شرح الطحاوية لابن أبى العز (ص ٩٧) تحقيق: أحمد محمد شاكر.

والـذين ذهـبوا إلى التفـرقة علـى هـذا الـنحو بين النبى والرسول استدلوا بقول الله تعالى﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ﴾[١] .

وقالوا: الآية تدل على التغاير بين النبى والرسول، لأن الله تعالى عطف النبى على الرسول، وذلك يوجب المغايرة وهو من باب عطف العام على الخاص.

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: كم المرسلون؟ فقال: ثلثمائة وثلاثة عشر فقيل: والأنبياء؟ فقال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا الجم الغفير" [٢] .

ويذهب القاضى عبد الجبار من المعتزلة إلى أن مجرد الفصل فى الآيةالسابقة بين النبى والرسول لا يدل على الاختلاف فى الجنس [٣] .

ويستشهد على ذلك بقوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾[٤] .

وعموما فهى مسألة خلافية لا نعتنى بها كثيرًا فى بحثنا هذا.

الأصل فى معرفة الرسول بأنه مرسل من عند الله:

ذكر علماء التوحيد أنه لابد للرسول من حجة وبرهان يعلم به أن الله تعالى قد أرسله، ويصح علمه بذلك من وجوه منها:

[١] أن يخاطبه الله عز وجل بلا واسطة، ويخلق فى قلبه علمًا ضروريًا يعلم به أن الذى يخاطبه ربه لا غيره، مثل خطاب الله لآدم عليه السلام حين نفخ فيه من روحه وأعلمه بالضرورة معرفة ربه، وأنه هو الذى خلقه وخاطبه،

[٢] أن يخاطب الله الرسول بلا واسطة ويظهر فى تلك الحال دلالة تدل على أن المخاطب هو الله تعالى مثل خطاب الله لموسى عليه السلام.

[٣] أن يرسل الله ملكًا إلى الرسول ويأمره بالرسالة ويظهر عند إرسال الملك معجزة يعلم بها أن الذى أتاه ملك وليس بشيطان [٥] .

---

(١) سورة الحج الآية (٥٢).

(٢) انظر: التفسير الكبير للرازى، والمجلد الثانى عشر (٢٣/٤٩، ٥٠)، وانظر الكشاف للزمخشرى (٣/١٨).

(٣) الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار (ص ٥٦٨) بتصرف يسير.

(٤) سورة الأحزاب الآية (٧).

(٥) انظر: أصول الدين للبغدادى(ص ١٥٧).

عدد الأنبياء والرسل:

أجمع أصحاب التواريخ من المسلمين على أن أعداد الأنبياء عليهم السلام مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، كما وردت بهم الأخبار الصحيحة أولهم آدم عليه السلام وآخرهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

أما الرسل: فإن عددهم ثلثمائة وثلاثة عشر [١].

أما أولو العزم فهم: سيدنا نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم. وخمسة منهم من العرب وهم: هود وصالح وإسماعيل وشعيب ومحمد عليهم السلام.

ويدل ذلك العدد الضخم من الأنبياء .. على أمور منها:

أولاً: أن اتصال السماء بالأرض واختيار الله عز وجل للأنبياء قديم قدم البشرية.

ثانيًا: أن هذا العدد يؤكد إرسال الله عز وجل أنبياء لكل الأمم﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [٢].

ثالثًا: أنه بالرغم من هذا العدد الكبير، إلا أن الذى وصلنا من عددهم قليل، وهذا يجعلنا نؤمن ونصدق بمن أعلمنا الله بهم وبمن لم يخبرنا بهم، يقول تعالى ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [٣].

ما يجب للرسل وما يستحيل عليهم:

والواجب على المؤمن تجاه الأنبياء والرسل الإيمان بهم جميعًا وأن يعتقد صدقهم وأمانتهم، وتبليغهم لرسالة ربهم، لأن الإيمان ببعضهم والكفر بالبعض الآخر يُعد كفرًا وشركًا، يقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [٤].

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٢) فاطر الآية (٢٤).

(٣) سورة النساء الآية (١٦٤).

(٤) سورة النساء الآية (١٥٠ ـ ١٥١) وانظر تفسير ابن كثير فى هذه الآيات (١/٥٧٢) طبعة عيسى البابى الحلبى.

كما يجب على المؤمن أن يعتقد بأن الأنبياء والرسل أكمل الخلق من ناحية الأخلاق والعمل، وأن الله سبحانه خصهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحد من البشر.

أما ما يستحيل عليهم، ولا يجوز أن يتصفوا به ولا أن يقع منهم فأمور منها: الكذب، والخيانة، والكتمان، وعدم تبليغ الرسالة، كذلك يستحيل عليهم الكبائر كلها والصغائر، وقد تقع منهم بعض الزلات والخطايا اليسيرة، بالنسبة إلى ما هم عليه من علو المقامات، كما وقع لآدم عليه السلام فى أكله مِنَ الشجرة على وجه النسيان، ولكنهم لا يقرون عليها بل يوفقون للتوبة منها [١].

بيان حاجة البشر إلى الرسالة:

لقد تناول علماء الإسلام القدامى والمحدثين بيان حاجة البشر إلى الرسالة فى معرض مناقشتهم للمنكرين للنبوات سواء من المنكرين للألوهية أو من المعترفين بها المنكرين للرسالة.

وبنوا حديثهم عن حاجة البشر إلى الرسالة على أمرين:

الأول: أن الأنبياء يأتون بما لا تستقل العقول بإدراكه، مثل ما يجب لله من صفات الكمال، وما يستحيل عليه من النقص، وما يجوز أن يتصف الله به، ومثل المعاد الجسمانى، وكيفية عبادة الله، وتعيين الحدود وتعليم ما ينفع وما يضر من الأفعال ومعرفة تفاصيل الثواب والعقاب للعاصى، لأن العقل فى هذه الأمور لا يرشد إلى النافع والضار من الأعمال والأقوال والأخلاق والعقائد، ولا يفرق بين الشقى والسعيد، فكان من لطف الله بعباده أن يرسل لهم رسولاً يبين ما لا يستطيعون الاستقلال به بعقولهم [٢].

الثانى: أن الناس يحتاجون إلى شرع يحتكمون إليه وهذا الشرع يأتى عن طريق الأنبياء، وبيان ذلك أن الإنسان محتاج بطبعه فى معاشه إلى اجتماع يتيسر بسببه المعاوضة ومن ثمَّ قيل "الإنسان مدنى بطبعه"، وهذا الاجتماع لا يتم ولا ينتظم إلا إذا كان بينهم معاملة وعدل، لأن كل واحد يشتهى ما هو محتاج إليه، ويغضب على مزاحمة غيره له ويختار جميع العادات لنفسه، وحصول هذه العادات لفرد واحد

---

(١) انظر: الإيمان (ص ٤٩ ، ٥٠) للدكتور محمد نعيم ياسين. مكتبة السنة، وانظر: المقاصد للسعد التفتازانى، وانظر دراسات فى العقيدة الإسلامية للدكتور أحمد عبد العال.

(٢) انظر: الاقتصاد فى الاعتقاد (ص ١٦٤، ١٦٥) والمواقف (ص٣٤٥) والمقاصد (١٢٨/٢).

obeikandl.com

يستدعى فواتها عن غيره، فلهذا يؤدى إلى التنازع ويختل أمر الاجتماع وهذا الاختلال لا يندفع إلا إذا اتفقوا على معاملة وعدل، والعدل والمعاملة غير متناول للجزئيات التى لا تنحصر، فلابد من قانون كلى، هو شرع يحفظه، والشرع لابد له من شارع يقرره على ما ينبغى ويكون متميزًا عن الآخرين بخصوصية فيه من قبل الخالق لينقاد الباقون له، وإلا لما قبلوه ولم ينقادوا إليه، وأن يكون إنسانًا يخاطبهم ويلزمهم المعاملة على وفق ذلك القانون، ويراجعونه فى مواضع الاحتياج ومظان الاشتباه. فتلك الخصوصية هى البعثة والنبوة، وذلك الإنسان هو النبى [١].

وإذا كان الله عز وجل يرسل كل فترة من الفترات رسولاً إلى البشر ليرشدهم، فقد ختم الرسالات بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وكما يقول الأستاذ "وحيد الدين خان" : "إن أكبر دليل على ضرورة الرسالة هو أن الأمر الذى يخبر عنه الرسول من أهم الأمور التى تتعلق بحياة الإنسان ومصيره، والإنسان لا يستطيع أن يصل على تلك الحقائق بجهوده الشخصية، إنه يبحث منذ آلاف السنين عن حقيقة الكون كى يفهم أسرار بدء الحياة ونهايتها، وحقائق الخير والشر، وكيفية صوغ الإنسان من أجل الإنسانية أن تسير قدمًا فى طريق الخير والرفاهية، ولم تكلل هذه الجهود بالنجاح إلى يوم الناس هذا.

فقد كشفنا عن أسرار الحديد والبترول وتعرفنا على حقائق الطبيعة بعد جهد قصير، ولكننا عاجزون عن كشف "علم الإنسان" رغم أن جهود أعظم عقولنا العبقرية تواصل البحث عن هذا العلم، ولم تستطع حتى الآن تحديد مبادئه وأسسه، إن هذا أكبر دليل على أن الإنسان يحتاج إلى الوحى وهدى الله من أجل أن يعرف نفسه" [٢].

ولقد استطاع الأستاذ وحيد الدين خان أن يصل إلى كبد الحقيقة بعد هذا التوصيف لما آل إليه أمر الإنسان فى القرن العشرين والحاجة إلى الوحى تعنى الرجوع إلى تعاليم الدين الخاتم الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لاشتماله على كل

---

(١) انظر: مطالع الأنظار شرح طوالع الأنوار (ص ٤٠٩ ، ٤١٠)، وانظر : شرح المقاصد للسعد (١٣٣/٢).
(٢) الإسلام يتحدى (ص ٩٨، ٩٩).

متطلبات الإنسان والإجابة عن كل ما يعرض على نفسه من أسئلة فى الكون أو فى الحياة.

وقد عرض "جمال الدين الأفغانى" أمورًا أربعة، وناقش احتمال ردعها للإنسان عن شهواته وأهوائه فى الدنيا. وانتهى إلى أن ثلاثة منها وهى التى لا تقوم على الدين، لا يمكن أن تردع الإنسان عن الاعتداء والإجحاف بحقوق غيره. هذه الأمور الأربعة هى:

١ـ المدافعة الشخصية.

٢ـ شرف النفس.

٣ـ الحكومة.

٤ـ الاعتقاد بالألوهية.

يقول ما ملخصه: "فقصر النفوس على طريقة محدودة وتوقيف أهوائها عند حدود معينة ومنعها من تجاوز حد الاعتدال فى آثارها وأعمالها وإرضاء كل ذى شهوة بحقه وكفه عن الاعتداء والإجحاف بحقوق غيره، هذا كله إنما يكون بأحد أمور أربعة:

إما المدافعة الشخصية : فإن الغلبة فيها تكون للأقوياء على الضعفاء يومًا إذا ما ثاروا على الأقوياء فلا يزال صاحب القوة يعتدى على الضعيف والأقران يسحق بعضهم بعضًا إلى أن يعم جميعهم الفناء، ولعل ما نشاهده فى القرن العشرين خير شاهد على ما ذكره جمال الدين الأفغانى فإن منطق القوة هو الذى يسيطر الآن بالرغم من الشعارات البراقة التى ترفع مثل حقوق الإنسان ومنظمة العدل الدولية، وخلافها من الواجهات التى لا خير من ورائها،

أما شرف النفس: فهى صفة ليست لها حقيقة معينة ولا هى فى حدود معرفة فإن ما يعتبره البعض من الشرف والشجاعة يستهجن عند الآخرين مثلما نرى عند سكان البادية والجبال من القبائل، فإنهم يعدون الغارة والفتك بالأرواح وانتهاب الأموال واسترقاق الأحرار من فعال المجد فى حين أن هذه الفعال يعدها سكان المدن من علائم الخسة والدناءة، وكذلك الحيلة والمكر والخداع يحسبها قوم خسة وخبثا،

obeikandl.com

ويحسبها الآخرون من الوضاعة والدناءة فلم تبق ريبة فى قصور خلة شرف النفس عن الكفاية فى تعديل الأخلاق وتحديد الشهوات، وحجب العدوان، وحفظ النظام الإنسانى.

أما الحكومة: فإن الحكومة تتعامل مع الظاهر من الأمور، أما أنواع المفاسد الخلقية التى لا يطلع عليها أحد، فإن الحكومة لا تستطيع التدخل فيها أو الإطلاع عليها، ثم إن كثيرًا من الحاكمين فى خفى أمرهم من رؤساء السارقين، وأعوانهم آلات تستعمل فى الجور وأدوات يستعان بها على الفساد والشر.

الأمر الرابع: الاعتقاد بالألوهية: وبكل ما يصدر عنها، لأن هذه العقيدة هى التى تقف أمام الشهوات، لأن صاحبها يعلم أن الله يعلم سره ونجواه، وأن هناك يومًا سيحاسب فيه عن كل ما قدمت يداه إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فعقيدة الألوهية واليوم الآخر وازعان قويان يكبحان جماح النفس على الشهوات ويمنعانها عن العدوان ظاهره وخفيه[1].

ومعلوم أن الرسول هو الذى يبين للخلق حدود الحلال والحرام، وهو الذى يخبرهم عن الآخرة وتفاصيلها.

فعُلم أن العقيدة الدينية القائمة على تصور صحيح للألوهية والمعتمدة على رسالة واضحة لا دخل فيها لأحد من البشر بالتحريف أو بالزيادة أو النقصان هى العقيدة التى تضمن للناس سعادتهم فى الدنيا والآخرة، وليس هناك عقيدة قائمة على هذه الأسس إلا الإسلام.

---

(١) انظر الرد على الدهريين (ص٨٢ ـ ٩١) جمال الدين الأفغانى، ترجمة الإمام محمد عبد ه الناشر: مكتبة السلام العالمية.

obeikandl.com

إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعموم بعثته

إثبات النبوة ودلائلها:

اصطفى الله عز وجل محمدًا صلى الله عليه وسلم ليكون الرسول الخاتم للبشرية كلها، وهذا الاصطفاء والاجتباء منحة من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده الذين علم الله عنهم أنهم أهل للاصطفاء. وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم من هذا الطراز الفريد من البشر. عرف بالصادق الأمين قبل البعثة، وبعد البعثة اتصف بمكارم الأخلاق ذلك أن الله ـ صنعه على عينه فاجتمع فيه الخير كله كمالا وفى الخلق تكاملاً.

وللعلماء فى إثبات نبوته مسالك متعددة ـ يستدلون من خلالها على أنه رسول الله لإقناع الخصوم أو من يجادلون فى إثبات نبوته، وسوف نختار مسلكين ندلل من خلالهما على نبوته صلى الله عليه وسلم.

المسلك الأول: ما يتعلق بأخلاقه.

المسلك الثانى: ما يتعلق بالمعجزات التى أيده الله بها.

ونبدأ بالمسلك الأول:

أخلاقه صلى الله عليه وسلم، ودلالتها على نبوته

يقول الله عز وجل عن محمد وخلقه "﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١).

ويقول سبحانه ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢).

وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا، وأصدقهم حديثا وأبعدهم عن الفحش والأخلاق الدنيئة التى تدنس الرجال لقد اجتمع فيه من الصبر، والحلم، والتواضع والجود والشجاعة ـ ما تواتر عنه صلى الله عليه وسلم حتى صار مضرب الأمثال فى مكارم الأخلاق وشهد له الأعداء بذلك والأصدقاء.

---

(١) سورة القلم الآية ٠٤

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٨

obeikandl.com

وهذه الأخلاق الفاضلة كانت صفاته عند أهل الكتاب فقد سئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة فقال: أجل والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن "**ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا**" "وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق، ولا يدفع بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح بها أعينًا عميا وأذانا صما وقلوبا غلفا [١].

هذه الصفات الأخلاقية الرفيعة جعلت السابقين الأولين إلى الإسلام يصدقون به صلى الله عليه وسلم دون الحاجة إلى طلب معجزة منه ودون الحاجة منه إلى تقديم معجزة لهم حتى يؤمنوا

يقول شارح الطحاوية "فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله علم يقينا أنه ليس بشاعر ولا بكاهن [٢].

ولكن البعض بعد تلك المعرفة قد يعرض مع تيقنه من صدق محمد صلى الله عليه وسلم وهذا ما كان من بعض كفار مكة مثل النضر بن الحارث حيث يقول لإخوانه من كفار مكة قد كان محمد فيكم غُلَامًا حدثا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم قلتم ساحر لا والله ما هو بساحر [٣]. ومع ذلك أعرض وكفر عنادًا واستكبارًا ولذلك أخذت السيدة من الصدق وصلة الرحم الدليل على أن الله لن يخزي الرسول ﷺ.

لأنه إذا كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقترن من القرائن فكيف بدعوى المدعى أنه رسول الله؟ كيف لا يتميز الصادق فى ذلك من الكاذب بوجوه الأدلة، فلما قال لها صلى الله عليه وسلم بعد أن نزل عليه الوحى "لقد خشيت على نفسى قالت: "كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى

---

(١) رواه البخارى فى البيوع - باب : كراهية الصخب فى الأسواق رقم ٢١٢٥.

(٢) شرح الطحاوية لابن أبى العز ص ١١٠.

(٣) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص ٣٦.

الضيف، وتعين على نوائب الحق" فذكرت ما كان مجبولا عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم [١]. هنا لم تطلب السيدة خديجة معجزة حسية ولم يقدم لها الرسول معجزة وإنما الاستدلال على نبوته وصدقه فيما يقول يرجع إلى أمور ذاتية تتعلق بشخصيته صلى الله عليه وسلم.

وكان هذا هو السبب فى تصديق أبى بكر، وزيد بن حارثة، وعثمان بن عفان والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله بن رباح، وعامر بن فهيرة وغيرهم من الصحابة[٢]. والاستدلال بصفات النبى صلى الله عليه وسلم وأخلاقه على صدق نبوته لم يقتصر على من هم فى داخل الجزيرة العربية وإنما تعدى ذلك إلى خارجها ولعل سؤال النجاشى ـ ملك الحبشة يصلح دليلاً على ما نثبته هنا فقد سأل النجاشى جعفر بن أبى طالب عن الرسول صلى الله عليه وسلم "فلما استخبرهم عما يخبر به، واستقرأهم القرآن فقرأوا عليه قال : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاه واحدة[٣]. والذى خرج به النجاشى من الاستدلال على نبوته من واقع سيرته ودعوته هو ما يقوم به العقلاء والحكماء الذين يرزقون البصيرة النافذة ويعلمون الرجال وما يفرقون به بين الصادق والكاذب.

وأرانى. مضطرا لذكر قصة هرقل ملك الروم واستدلاله من واقع صاحب الدعوة ـ أى محمد صلى الله عليه وسلم والدعوة أى الإسلام الذى يدعو إليه صلى الله عليه وسلم.

والمستجيبون للدعوة أى الصحابة الذين دخلوا الإسلام وكانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم وبعد أن سأل أسئلة محددة ـ عن الرسول ونسبه وصدقه ووفائه ثم الدعوة وموضوعها ـ والذى تأمر به وتنهى عنه.

ثم المدعوين وحالهم وصفاتهم ومدى تمسكهم بالدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ـ استنبط ـ ما يحكم به العقل ويدل عليه دلالة قاطعة أن من يتصف

---

(١) شرح الطحاوية ص ١١١ / ١١٢.
(٢) الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية ص ٣٣.
(٣) شرح الطحاوية ص ١١٢.

بالصفات التى ذكرها أبو سفيان بن حرب لا يمكن أن يكون كاذبا قال هرقل لأبى سفيان "فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه "[١].

وقصة هرقل تتمثل فى أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل كتابا مع "دحية الكلبى" إلى "هرقل" عظيم الروم فلما وصل الكتاب قيصر قال انظروا لنا رجلا من قومه نسأل عنه وكان أبو سفيان ابن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة فجاءت رسل قيصر لأبى سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ولما قدموا عليه فى القدس قال لترجمانه: سلهم أيهم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى فقال أبو سفيان أنا لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيره فقال قيصر ادْنُ منى ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره ثم قال لترجمانه قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى، وقد جعلتكم خلفه كيلا تخجلوا من رد كذبه عليه إذا كذب ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم؟

قال: هو فينا ذو نسب.

قال: هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله؟ قال: لا

قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قال: لا

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم

قال: فهل يزيدون أم ينقصون؟ قال: بل يزيدون.

قال: هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ قال: لا.

قال: هل إلى إذا عاهد؟ قال: لا ونحن الآن منه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها (يشير على ما كان بين المشركين والنبى من صلح الحديبية)

قال: فهل ما قاتلتموه؟ قال: نعم

---

(١) رواه البخارى بدء الوحى جـ١ ص ٦.

قال: فكيف حربكم وحربه؟ قال: الحرب بيننا سجال مرة لنا ومرة علينا

قال: فَبِمَ يأمركم؟ قال: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا وينهى عما كان يعبد آباؤنا ويأمر بالصلاة والصدق، والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة[١].

إلى هنا هرقل يسأل أبا سفيان أسئلة محددة وأبو سفيان يجيب أيضا بالصدق ـ عن صفات النبى ـ وأصحابه ـ وفحوى دعوته ـ أى الإسلام وهرقل يستمع من خلال الترجمان ولا يعقب ـ ثم نراه بعد ذلك يعيد الأسئلة والأجوبة ويقوم بتحليل لمضمونها واللازم لمن يتصف بها.

يقول هرقل "إنى سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها.

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فزعمت أن لا فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتم بقول قيل قبله.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا فقلت: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فقلت لا فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل،

وسألتك هل يزيدون أم ينقصون؟ فقلت بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم

وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ فقلت: لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك هل قاتلتموه؟ فقلت نعم وإن الحرب بينكم وبينه سجال، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك: بماذا يأمر؟ فزعمت أنه يأمر بالصلاة

---

(١) صحيح البخارى جـ ١ باب بدء الوحى ص ٦/٧/٨.

والصدق، والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وسألتك: هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر فعلمت أنه نبى، وقد علمت أنه مبعوث، ولم أظن أنه فيكم وإن كان ما كلمتنى به فسيملك موضع قدمى هاتين، ولو أعلم أنى أخلص إليه لتكلفت ذلك قال أبو سفيان:

فعلت أصوات الذين عنده وكثر لغطهم فلا أدرى ما قالوا وأمر بنا فأخرجنا فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال:

لقد بلغ أمر ابن أبى كبشة أن يخافه ملك بنى الأصفر [١].

هذا ما كان من أمر هرقل - وهو فى خارج الجزيرة العربية - هذه الدلالات على صدق النبى صلى الله عليه وسلم - استنبطها هرقل. من طبيعة دعوته ومكارم أخلاقه. ومع أنه لم يؤمن إلا أن ذلك راجع إلى حب السيادة والجاه وآثر ذلك على متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم والدخول فى دينه - وقد صرح هرقل بأن الخوف منعه من ذلك لما أظهره قومه - من غضب وصياح - كما فى رواية البخارى [٢].

ومن عجيب الأمر أن علماء الكلام يذكرون الاستدلال بشخصيته صلى الله عليه وسلم ومكارم أخلاقه فى مرتبة متأخرة من الأدلة على النبوة ويولون المعجزات الحسية اهتماما زائدا على الرغم من الاعتراضات التى توجه إلى دلالة المعجزات الحسية على صدق الرسول. نقرأ نصا "للتفتازانى" فى معرض إستدلاله بأخلاق النبى صلى الله علية وسلم وصفاته على نبوته يقول"وقد يستدل أرباب البصائر على نبوته صلى الله عليه وسلم بوجهين:

أحدهما: ما تواتر من أحواله قبل النبوة، وحال الدعوة وبعد تمامها، وأخلاقه العظيمة، وأحكامه وإقدامه حيث تحجم الأبطال ووثوقه بعصمة الله تعالى فى جميع الأحوال وثباته على حاله لدى الأهوال بحيث لم يجد أعداؤه مع شدة عداوتهم

---

(١) رواه البخارى باب بدء الوحى جـ١ ومسلم فى الجهاد والسير باب كتاب صلى الله عليه وسلم إلى هرقل.
(٢) البخارى باب بدء الوحى جـ١ ص٨/٧.

وحرصهم على الطعن فيه مطعنا، ولا إلى القدح فيه سبيلا فإن العقل يجزم بامتناع اجتماع هذه الأمور فى غير الأنبياء.

ثانيهما: أنه ادعى ذلك الأمر العظيم بين أظهر قوم لا كتاب لهم ولا حكمة معهم وبين لهم الكتاب والحكمة وعلمهم الأحكام والشرائع وأتم مكارم الأخلاق وأكمل كثيرا من الناس فى الفضائل العلمية، والعملية ونور العالم بالإيمان والعمل الصالح، وأظهر الله دينه على الدين كله كما وعده ولا معنى للنبوة والرسالة سوى ذلك [١]." ولعل عبارة التفتازانى تنبئنا عن قيمة هذا الدليل لديه ولدى إخوانه من المتكلمين حيث يقول بصيغة التضعيف والتقليل "وقد يستدل" لأن معظم المتكلمين لا يتكلمون أساسا على جانب الأخلاق وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم كدليل على نبوته.

وقليل من المتكلمين[٢]." يذكرون هذا الدليل على استحياء بعد أن يسوقوا المعجزة كدليل أوحد ومقدم ـ على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكما يقرر أستاذنا الدكتور يحيى هاشم ـ فى نقده لمسلك المتكلمين لتأخيرهم دليل أخلاقه وأحواله على نبوته ـ بعد المعجزة ودلالتها.

يقول حفظه الله ولعمرى ما الذى جعل علم الكلام يهمل كل هذه الدلالات مع غناها من حيث هى دلالة عادية ـ إلا وهمه أن يجد فى المعجزة دلالة أقوى لأنها ترتفع إلى مستوى الدلالة القطعية؟

أحسب أن علم الكلام فى هذا هو أشبه بوالد أهمل أولاده الكثيرين على نجابتهم وحسنهم وفضلهم لأنه ظن لسبب ما أن ولدا آخر له هو أفضل منهم وأحسن وأنجب، وأن له قيمة تفوقهم أجمعين وأنه من شأنه أن يضفى على والده شرفا لا طريق بالآخرين إليه فانكسف بذلك شعاع أولاده ظلمًا دون أن يبزغ شمس المختار منهم [٣]."

---

(١) شرح التفتازانى على العقائد النفسية ط ص ١٨٩.

(٢) انظر مطالع الأنظار للأصفهانى شرح مطالع الأنوار للبيضاوى ص ٤٢٤ وانظر المواقف وشرحها جـ٨ ص ٢٥٩/٢٦٠ وانظر شرح السنوسية الكبرى ص ٣٣٨ تحقيق الدكتور / عبد الفتاح بركة وانظر المنقذ من الضلال للغزالى ص ١٩٠/٢٠٥.

(٣) الأسس المنهجية ص ٢٤٦.

هذا ما حدث بالفعل من المتكلمين خلا القليل منهم حين فضلوا الاستدلال بالمعجزات وبدءوا بها على حساب دلالة الأخلاق والأحوال التى لازمته صلى الله عليه وسلم والتى بدلالتها آمنت خديجة بنت خويلد وورقة بن نوفل والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار بل وامتدت إلى خارج الجزيرة العربية كما حدث فى شأن هرقل. بل وأكثر من ذلك كانت أخلاقه هى السبب فى إسلام كثير من الناس خلال فترة دعوته صلى الله عليه وسلم .

المسلك الثانى: المعجزات ودلالتها على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم

المعجزة الكبرى الخالدة الباقية للرسول صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم. يقول الله ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1]".

ويقول سبحانه ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[2]".

وقد تحدى الله العرب وغيرهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو سورة واحدة منه يقول تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3]".

وهذا التحدى هو أغرب تحد فى التاريخ ـ لأن من زعم من العرب قديما أن القرآن ليس من عند الله ـ فليأت بمثله أو بسورة منه ومن زعم فى أى وقت من الأوقات ذلك إلى أن تقوم الساعة فعليه أن يأتى بمثله أو بسورة منه فإن التحدى قائم على وجه الدهر يقول القاضى عبد الجبار "فإن قيل ما وجه الإعجاز فى القرآن؟ قلنا إنه تحدى العرب بمعارضته ـ مع أنهم كانوا فى الغاية من الفصاحة والمشار إليهم فى الطلاقة والذلاقة وقرعهم بالعجز عن الإتيان بمثله فلم يعارضوه وعدلوا عنه لا لوجه سوى عجزهم عن الإتيان بمثله[4]".

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨.

(٢) سورة النساء الآية ٨٢.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٣.

(٤) الأصول الخمسة ص ٥٨٦.

ويفصل العلماء الوجوه التى من أجلها كان القرآن معجزا وهذه الوجوه منها

أولا: نظمه على وجه مخصوص مفارق لجميع أوزان كلام العرب ونظمه وترتيبه وبلاغته وفصاحته على وجه جاوز فصاحة كل فصيح وبلاغة كل بليغ وكيف عجز العرب، وهم أهل الفصاحة والبلاغة عن أن يأتوا بسورة منه فى مدة ثلاث وعشرين سنة واختاروا الخروج بالسيف مع ما فيه من إراقة الدماء واستحلال النساء واسترقاق الأولاد - على معارضة سورة واحدة وفى هذا من العجز الظاهر والنكول الواضح عن الإتيان بسورة منه [١]".

ثانيًا: ما انطوى عليه من الأخبار بالغيوب واشتماله على قصص الأولين مع القطع بأنه صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب يقول تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [٢]".

ثم إخباره عن غيوب يعجز الخلق عن معرفتها مثل قوله تعالى ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [٣]". وكان الأمر كما أخبر الله على لسانه صلى الله عليه وسلم.

وقوله ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ [٤]".

ومثل قوله تعالى ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ ﴾ [٥]".

---

(١) انظر المعتمد فى أصول الدين للقاضى أبى يعلى الفراء ص ١٥٨ / ١٥٩ وانظر الإنصاف للباقلانى ص ٦٢ / ٦٣ وانظر نهاية الأقدام للشهر ستانى ص ٤٤٩.

(٢) سورة القصص الأية ٤٨.

(٣) سورة الروم الآية ١/٥.

(٤) سورة الفتح الآية٢٧.

(٥) سورة الفتح الآية ١٦.

وقد دعاهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما إلى قتال العرب والفرس والروم بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم [١]".

ومثل قوله تعالى "﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝ ﴾ [٢]". وقد ولى المشركون الدبر وهزم جمعهم بعد أن اجتمعوا لقتال النبى صلى الله عليه وسلم فى بدر وقد ذكر القرآن الكريم ذلك يوم أن كان المسلمون مستضعفين فى مكة.

وبالجملة ـ فلو نقب العاقل على ما فيه من الأخبار بقصص الماضين وأحوال الأولين على نحو ما وردت به الكتب السالفة ؛ وما فيه من الإخبار عما تحقق بعد ما أخبر به من الغائبات فإن ذلك يكون كافيا له فى معرفة إعجاز القرآن وصادًا له عن المكابرة والبهتان[٣].

ثالثا: إذا كان القدامى قد استدلوا بوجوه على إعجاز القرآن من ناحية البلاغة والنظم وأيضا من ناحية الإخبار عن الغيوب التى وقعت كما أخبر الله عز وجل فى القرآن ـ فإن المحدثين من الباحثين يضيفون إلى تلك الوجوه وجوها أخرى لإعجاز القرآن تتمثل فى الكشوف العلمية الحديثة التى أخبر عن بعض منها القرآن الكريم ـ ونحن لئلا نحمل القرآن الكريم ما لا يتحمله وينبغى أن نقرر أن مطابقة كلمات القرآن وألفاظه للكشوف الحديثة مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف عن الأسرار الواقعة موضوع البحث فتوفرت لدينا مواد نافعة لتفسير الإشارات القرآنية فى ذلك الموضوع ؛ ولو أن دراسة المستقبل فى موضوع ما تبطل واقعة من وقائع العلم الحديث كليا أو جزئيا فليس هذا بضائر مطلقا صدق القرآن بل معناه أن المفسر أخطأ فى محاولته لتفسير إشارة مجملة فى القرآن [٤]".

وسوف نأخذ نموذجا واحدا من **إعجاز القرآن فيما يتعلق بخلق الجنين**.

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٨٥.

(٢) سورة القمر الآية ٤٥.

(٣) انظر بلوغ المرام للآمدى ص ٣٤٥ نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية تحقيق حسن محمود عبد اللطيف.

(٤) الإسلام يتحدى ص ١٩٣.

من المعلوم أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أميا ولم تكن له أدنى معرفة بالعلوم والمعارف قبل الرسالة وبعد أن نزل عليه القرآن الكريم شاء الله لهذا الكتاب أن يكون المعجزة الخالدة الباقية إلى أن تقوم الساعة وقد احتوى القرآن الكريم على إشارات دقيقة عن مراحل نمو الجنين فى بطن أمه ـ والتساؤل الآن ما الذى أعلم محمدا بتلك الحقائق ـ التى أنفق الإنسان مئات السنين من التجارب والبحوث ليصل إليها ـ ؟ الجواب ـ هو الله ـ ومن الممكن أن نأخذ من هذه الحقائق دلائل على وحدانية الله ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وإعجاز القرآن. كل هذه الدلائل تؤخذ من هذه الحقائق القرآنية التى تطابقت معها المعارف الحديثة ولابد أن نشير إلى أن صحيح المنقول لا يتعارض مع صريح المعقول كما أشار إلى ذلك العلماء ؛ وفى مقدمتهم شيخ الإسلام ابن تيمية وألف كتابه القيم ـ درء تعارض العقل مع النقل ـ حول هذا وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1].

ولنعرض الآيات ثم نرى استنباط الباحثين المتخصصين لها :

يقول الله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾[2]."يقول البرفسور جونسون: القرآن أول مصدر يذكر أطوار الجنين ويصف المظهر الخارجى والعمليات الداخلية المتلاحقة فى الرحم كما أن وصف الرحم بأنه قرار مكين وصف دقيق ـ وقد كشف العلم الكثير من التفاصيل لهذا الوصف الجامع المعبر فالرحم للنطفة ؛ ولمراحل الجنين اللاحقة سكن لمدة تسعة أشهر، وبالرغم من طبيعة الجسم التى تطرد أى جسم خارجى فإن الرحم يأوى الجنين ويغذيه ؛ وللرحم عضلات رابطة تحمى الجنين داخله ؛ ويستجيب الرحم لنمو الجنين ويتمدد بدرجة كبيرة ليتلائم مع نموه فهو قرار له وقد جمع هذا اللفظ الذى

---

(١) سورة فصلت الآية ٥٣.

(٢) سورة المؤمنون الآيات من ١٢ /١٤.

وصف القرآن الكريم به الرحم كل الحقائق التى اكتشفها العلم لبيان مناسبة الرحم لاستقرار الجنين فهو لفظ معبر جامع[١]".

وهكذا قدّم القرآن الكريم والسنة النبوية منذ أكثر من ألف عام مصطلحات تصف مراحل الجنين وهى منطبقة تماما مع قواعد تحديد المصطلحات فى ضوء معارفنا الحديثة وفى كل مرحلة قدم لها وصفا دقيقا يشمل المظهر الخارجى وأهم أحداث الخلق فى تلك المرحلة[٢]".

ما أثبته العلماء المتخصصون من تطابق المعارف الحديثة مع القرآن الكريم وحقائقه يمكن أن يستدل به لدى الملحدين ؛ والماديين ـ على النبوة والرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم لأنا نقول على سبيل المثال كما يقرر البروفسور "جونسون" إن التطورات والأحداث التى تكلم عنها القرآن خلال مرحلة النطفة يستحيل كشفها بدون المجاهر الضخمة إذن فمن الذى أعلم محمدًا بها ـ إنه الله[٣]."إن أخبار القرآن الكريم عن كثير من التعبيرات التى كشف العلم من معانيها ما لم يخطر فى بال أحد من أهل العصر الذى نزل فيه يعد من المعجزات ومن معجزاته أيضا أنه لم يثبت على توالى القرون بعد نزوله شىء قطعى أخبر به ـ وهذا يدل على أنه من عند الله [٤]". وصدق الله العظيم إذ يقول "﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[٥]".

المعجزات الحسية:

مع دلالة صدق المعجزة الكبرى الخالدة وهى القرآن الكريم على صدقه صلى الله عليه وسلم فإن هناك معجزات حسية ـ طلب بعضها المشركون كانشقاق القمر ووقع بعضها للنبى صلى الله عليه وسلم ـ دون أن يطلبها منه أحد ـ كحنين الجذع، ونبع

(١) انظر مجلة الإعجاز العلمى ص ٢٦/٢٧/٢٨ العدد الأول الطبعة الثانية شوال ١٤١٦ هـ.

(٢) انظر مجلة الإعجاز العلمى ص ٢٦/٢٧/٢٨ العدد الأول الطبعة الثانية شوال ١٤١٦ هـ.

(٣) نفسه ص ٢٩ وانظر فى إعجاز القرآن من الناحية العلمية الإسلام يتحدى وحيد الدين خان، وانظر الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ـ موريس بوكاى وانظر توحيد الخالق ـ للزندانى،

(٤) الوحى المحمدى ص ٣٥٥ /٣٥٦.

(٥) سورة النساء الآية ٨٢.

الماء من بين أصابعه وتسبيح الحصى بين يديه صلى الله عليه وسلم يقول الجوينى فى لمع الأدلة: "ولرسول الله صلى الله عليه وسلم آيات ومعجزات سوى القرآن كانفلاق القمر، وتسبيح الحصى، وإنطاق العجماء، ونبع الماء من بين الأصابع ونحوها[١]." وقد عدد الجرجانى فى شرحه على المواقف نحوا من ستة أنواع من هذه المعجزات الحسية الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم مثل مشى الشجرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ومنها. حديث الظبية للنبى وسؤالها له أن يستشفع لها عند الأعرابى لترضع خشفيها، ومنها كلام الناقة للنبى وغير ذلك كثير... ثم يعقب على هذه المعجزات فيقول " كل واحدة من هذه المعجزات المغايرة للقرآن وإن لم تتواتر فالقدر المشترك بينها وهو ثبوت المعجزة متواترا بلا شبهة - وهو كاف لنا فى إثبات النبوة[٢]."وذلك لأنها ليست فى وسع أحد من المخلوقات [٣]."

ونحن مع صاحب المواقف وشارحها فى أن هذه المعجزات كافية فى وقتها للدلالة على صدق النبى - كدلالة معجزة إبراهيم وموسى، وعيسى عليهم الصلاة والسلام فى الدلالة على نبوتهم - ولكن يبقى الاستدلال بأخلاقه وصفاته صلى الله عليه وسلم مع المعجزة الخالدة وهى القرآن لهما قصب السبق فى الدلالة على صدق النبى إن كان ذلك فى زمانه أو بعد عصره وإلى أن تقوم الساعة.

عموم بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وعالمية رسالته

: نصوص الوحيين المثبتة لعموم البعثة:

شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يرسل محمدًا صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ليبلغ رسالة الله الخاتمة إلى الناس جميعًا والله أعلم حيث يجعل رسالته.

---

(١) لمع الأدلة ص ١١٢ تحقيق الدكتورة فوقية حسين.

(٢) انظر المواقف لعضد الدين الإيجى وشرحها للسيد الشريف الجرجانى ص ٨ ٢٥٦/٢٥٧/٢٥٨.

(٣) بلوغ المرام للآمدى ٣٤٥.

الآيات والأحاديث الدالة على عموم بعثته صلى الله عليه وسلم.

يقول الله تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[١].

هذه الآية تدل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم. مبعوث إلى جميع الخلق وقوله يا أيها الناس المراد جنس الناس لا كل فرد وإلا فمعلوم أن غير المكلف لا يدخل تحت الناس. وقد علم بالتواتر من دينه أنه كان مبعوثا إلى كل العالمين[٢] وهى تدل ضمنا أنه مبعوث إلى الثقلين وسائر الرسل إلى أقوامهم فقط[٣] وإلى هذا المعنى ذهب القاسمى فى محاسن التأويل[٤].

ويقول سبحانه " ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[٥]. يقول البيضاوى أى لأنذركم يا أهل مكة ومن بلغه إلى يوم القيامة وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم ـ فكل من بلغه القرآن فقد أنذره محمد صلى الله عليه وسلم والإنذار ليس مختصا بمن شافههم بالخطاب بل ينذرهم به وينذر من بلغهم القرآن [٦] وهذه الآيات وغيرها من السور المكية التى تتحدث عن عموم رسالته صلى الله عليه وسلم تجابه المزورين من أهل الكتاب وغيرهم الذين يزعمون أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن يدور فى خلده وهو بمكة أن يمد بصره برسالته إلى غير أهل هذه القرية من ذيول الحرب التى شنوها قديما على هذا الدين وأهله ومازالوا ماضين فيها [٧]

ويقول عز وجل ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٨] أى رسالة عامة لهم محيطة بهم لأنها وإذا شملتهم فقد

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٨.
(٢) انظر البرهان للزركشى جـ٢ ص ٢٢٦ والتفسير الكبير للرازى جـ١٥ ص ١٦.
(٣) تفسير البيضاوى ص ٢٥٥.
(٤) محاسن التأويل للقاسمى جـ ٥ ص ٢٧٩ ـ الناشر دار الفكر بيروت.
(٥) سورة الأنعام الآية ٢٠.
(٦) تفسير البيضاوى والجواب الصحيح جـ ١ ص ٣٨٣.
(٧) ظلال القرآن جـ ٣ ص ١٣٧٩/١٣٨٠.
(٨) سورة سبأ الآية ٢٨.

كفتهم أن يخرج منها أحد منهم وهى ظاهرة فى الاستدلال على بعثة محمد صلى الله علية وسلم[١] للناس جميعا.

ويقـول سبحـانـه ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[٢]

ونحن نذكر هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر وإلا فالآيات كثيرة جدا سواء منها المكى أو المدنى.

وقد وردت أحاديث صحيحة بروايات متعددة تدل على عموم بعثة النبى صلى الله عليه وسلم مختصا بذلك دون غيره من الأنبياء والمرسلين جميعا منها :-

ما رواه البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد، من قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة [٣] وما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم، وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون [٤] يقول ابن حجر وطريق الجمع بين رواية البخارى ورواية مسلم أن يقال لعله صلى الله عليه وسلم اطلع أولا على بعض ما اختص به ثم اطلع على الباقى[٥] وما رواه الإمام أحمد ومسلم بسنديهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال"والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد، من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أهل النار [٦]ووجه الدلالة أنه لو لم يكن مرسلا إلى جميع الخلق ومنهم اليهود، والنصارى ما حكم على من لم يؤمن منهم برسالته بأنه من أصحاب النار

(١) الكشاف للزمخشرى جـ٣ ص ٢٩٠ وروح المعانى جـ٢٢/٢١ ص ١٤٢ـ ١٤٣.
(٢) سورة الفرقان الاية ١.
(٣) فتح البارى جـ١ ص ٤٣٦ كتاب التيمم.
(٤) رواه الإمام مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة شرح النووى جـ٣ ص. دار الفكر بيروت.
(٥) فتح البارى جـ١ ص ٤٣٦.
(٦) رواه الإمام مسلم جـ١ رقم ١٥٣.

ولذلك دعاهم صلى الله عليه وسلم وأقام الحجة عليهم وعلى ملوكهم وأمرائهم بالرسائل التى أرسلها إليهم إن فى داخل الجزيرة العربية أو خارجها.

بشارة الكتب السابقة بمحمد صلى الله عليه وسمل ودلالتها على عموم بعثته:ـ

أخبرنا القرآن الكريم بأن محمدا صلى الله عليه وسلم. كان معروفا عند أهل الكتاب خاصة أحبارهم ورهبانهم. وأن فريقا منهم يكتمون الحق وهم يعلمون. وأيضا فريق منهم علم الحق فصدع به وآمن وصدق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1]

ويقول تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2]

ويقول سبحانه على لسان عيسى﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[3]

هذه الآيات جميعها تقرر أن أهل الكتاب عندهم علم بمحمد صلى الله عليه وسلم لأن أنبياءهم بشروا به، وعلى الرغم من التحريف الذى لحق بالتوراة والإنجيل إلا أن علماء الإسلام نشطوا فى استنباط بعض الأدلة من كتب اليهود والنصارى تدل على بشارة الأنبياء به ـ وهذه الأدلة يفهم منها عموم بعثته صلى الله عليه وسلم للناس جميعا وتدل على كونه خاتم الأنبياء.

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧.

(٢) سورة الأنعام الآية ٢٠.

(٣) سورة الصف الآية ٦.

ورد فى أشعياء "لأنه يولد لنا ولدًا ونعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبا مشيرا إلها قديرا أبا أبديا رئيس السلام لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسى داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد غيرة رب الجنود تصنع هذا [1]

هذا النص يشير إلى النبى صلى الله عليه وسلم وعموم بعثته وختم نبوته من وجوه عدة هى

أولا: قوله "وتكون الرياسة على كتفه"يقصد بها خاتم النبوة الذى على كتف النبى محمد صلى الله عليه وسلم ـ وقد جاء فى النسخ القديمة "والشامة على كتفه" والنبى هو الذى رياسته على عاتقيه وبين منكبيه إشارة إلى ختم النبوة وإلى السيف الذى كان يعلقه صلى الله عليه وسلم على عاتقه.

ثانيًا: قوله " أبا أبديا رئيس السلام" وفى النسخ القديمة" أركون السلام" والأركون هو العظيم محمد صلى الله عليه وسلم وهو صاحب الشريعة الأبدية التى لم تنسخ، وهو الذى أقر السلام فى العالم ونشره.

وقد وردت الفقرة السابقة من هذه البشارة فى طبعة لندن ١٨٢٢ م هكذا ليكثر سلطانه وسلامه ليس له فناء على كرسى داود وعلى مملكته يجلس ليقيمها ويعضدها بالإنصاف والعدل منذ الآن وإلى الأبد."

وهذه الصفة إشارة إلى ختم النبوة لأن الذى سلطانه إلى الأبد لا ينسخ شرعه لعدم الحاجة إلى شرع آخر غيره، ومعنى جلوسه على كرسى داود ورائته بنى إسرائيل ونبوتهم وملكهم ورياستهم ولم يحصل هذا لغير محمد صلى الله عليه وسلم بل هو صريح الدلالة عليه.

ثالثا: إن هذه الأوجه جميعا التى اشتمل عليه النص السابق. صريحة فى محمد صلى الله عليه وسلم فهو الذى كان بين كتفيه خاتم النبوة وهو الذى كان مؤيدًا منصورًا على الأعداء وهو الذى نشر السلام فى الأرض أما المسيح فلم يسلط على

---

(١) سفرا أشعيا الإصحاح التاسع فقرة ٦/٧.

أحد ـ بل تسلط عليه اليهود والرومان ثم إن الأناجيل تنسب للمسيح قوله "لا تظنون أنى جئت لألقى سلاما على الأرض ما جئت لألقى سلامًا بل سيفًا"[١]

فهو على حسب هذا القول لم يأت لنشر السلام الذى نشره محمد صلى الله عليه وسلم[٢].ومن ثم تكون هذه النصوص خاصة بمحمد صلى الله عليه وسلم. دالة على نبوته وعموم رسالته. صلى الله عليه وسلم.

حاجة البشرية إلى الرسالة الخاتمة

فى الوقت الذى بعث الله عز وجل فيه محمدا صلى الله عليه وسلم كان العالم فى أمس الحاجة إلى الصوت الأخير ـ المتمثل فى الإسلام ـ فقد كانت المجتمعات كلها تتخبط خبط عشواء ـ وكل شىء فى العالم ينبئ عن الاضطراب ولسان حاله يقول هل من منقذ؟ هل من مخلص؟ ولم يكن شئ سوى الإسلام لينقذ العالم من الاضطراب والبشرية من الهلاك المدمر ـ فالإسلام الرسالة الخاتمة هو دواء هذا الداء الذى استشرى فى كل مكان ـ ولم يكن فى منطقة دون منطقة [٣] ـ كانت البشرية تتطلب إنقاذا سريعا يخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن ضيق الظلم إلى رحابة العدل. وكان هذا المنقذ هو الرسول صلى الله عليه وسلم الذى ظهر فى وسط شتات من البشر. اعتقدوا فى أديان ـ حرفت وبدلت فانقلبت على أعقابها وذهبت ببهاء الدين النازل من عند الله ـ بعد أن حرفه الأتباع وبدلوه وقد أجاد العلامة أبو الحسن الندوى فى وصف الحالة التى عليها العالم وقت بعثة النبى مظهرًا مدى حاجة البشرية إلى الرسالة الخاتمة يقول "بعث محمد صلى الله عليه وسلم فوجد مجتمعًا هو الصورة المصغرة للعالم ـ كل شىء فيه فى غير محله أصبح الذئب راعيًا، والخصم الجائر قاضيا، واصبح الصالح فيه محرومًا شقيا بينما المجرم سعيدًا حظيا. رأى ملوكا اتخذوا بلاد الله دولا وعباد الله أرقاء، ورأى الأحبار والرهبان من اليهود والنصارى أصبحوا أربابا من دون الله ـ يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله. لذا كان الجميع فى حاجة إلى من يأخذ بأيديهم فلم يكن خطابه لأمة دون أمة ووطن، دون

---

(١) إنجيل "متى" ١٠/٢٤..

(٢) انظر بالتفصيل بشرية المسيح ونبوة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم د/محمد خليل مكاوى الطبعة الأولى ١٩٩٣ ـ مطابع الفرزدق الرياض ـ ص ٢٦١/٢٦٢/٢٦٣.

(٣) مطلع النور ص ٢٦ للأستاذ العقاد منشورات دار الآداب بيروت ضمن مجموعة العبقريات.

وطن، ولكن خطابه للنفس البشرية وللضمير الإنسانى وكانت أمته العربية لانحطاطها وبؤسها أحق أن يبدأ به مهمته الإصلاحية وجهاده العظيم[1]

هذا الوصف الدقيق يعطى صورة مجملة عما كان عليه العالم الذى علم الله أنه فى أمس الحاجة إلى رسول يخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط الله العزيز الحميد ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته... فكان محمد الرسول وكان الدين ـ هو الإسلام بوسطيته وشموله وعدله ورحمته.

وسوف نعرض وصفًا موجزًا لبعض الأمم وقت الرسالة ـ حتى نتبين مدى الحاجة والضرورة إلى الرسالة الخاتمة للعالم كله.

حال الأمم وقت البعثة:

١ ـ أمة العرب:

ليس هناك أفضل من وصف للعرب قبل الإسلام ـ إلا بأنهم كانوا فى ضلال مبين يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2]

الضلال يتمثل فى عبادتهم الأصنام والأوثان من دون الله واعتبارهم إياهم شفعاء، وابتغاء الرزق عندهم، ومن وأد للبنات وشرب للخمر ولعب للميسر حتى قال قائلهم

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عودى

فمنهن سبق العـازلات بشربـة ... كميت متى تعل بالـماء تزبد

هذا فضلا عن العصبية الجاهلية التى لا تتوقف عند قتال القبائل بعضها لبعض بل قال أحدهم وأحيانًا على بكر أخينا إذا لم نجد سوى بكر أخانا وكثير من أمراض العالم من حولهم حلت بهم إن من الناحية الإجتماعية أو السياسية والاقتصادية ـ خاصة فيما يتلعق بالربا الذى كان شائعا عند العرب خاصة المجاورين منهم لليهود ـ ومعلوم ـ ما يفعله الربا بالجميع، وما يقوم به المرابى من ظلم.

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٨٢ بتصرف.

(٢) سورة الجمعة الآية ٢.

كل هذه الأمور كانت تجعل من الرسالة الخاتمة لهذه الأمة ضرورة حتمية ليخرجوا من الظلمات إلى النور.

ب ـ أمة اليهود:

اليهود غلاظ القلوب ديدنهم الفساد فى الأرض يعيشون فى ظل عقيدة لديهم يعاملون الناس على أساس منها ـ تتمثل هذه العقيدة فى كونهم شعب الله المختار وهم فضلا عن ذلك يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه ومجتمعهم مجتمع مغلق لا يدخلون فيه إلا اليهودى لأن الدين والجنسية عندهم شئ واحد [١]

ومعلوم أن شريعتهم التى حرفوها وبدلوها تفرق بين ما هو منهم، وما هو من غيرهم فنراهم يحرمون الربا فيما بينهم [٢] بينما يستحلونه مع غيرهم ـ وغير ذلك كثير من خروجهم عن منهج الله عز وجل . ثم هم فى الوقت نفسه كانوا ينتظرون النبى الخاتم وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا ـ وذلك قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم فلما جاءهم ما عرفوا من الحق كفروا به فلعنة الله على اليهود، والكافرين.

كل هذه الخصال الذميمة التى اجتمعت فيهم لا تؤهلهم كافة ولا يؤهلهم دينهم الذى حرفوه وبدلوه لأن يكون دينًا عالميًا يقدم الحلول للبشرية ومشكلاتها المعقدة فكان لابد من الرسالة الخاتمة.

جـ ـ أمة النصارى:

كانت النصرانية فى البداية تدعو إلى التوحيد ـ ثم استحالت بعد المسيح عليه السلام إلى ديانة وثنية. وأدى ذلك إلى اختلاف فرقها اختلافًا أودى بالإنقسام الحاصل بين أتباعها إلى اليوم ثم إن النصرانية ليس لها شريعة تنظم المجتمع النصرانى فضلا عن سلطة القساوسة والرهبان الذين يحلون ويحرمون ويأكلون أموال الناس بالباطل ولذلك لا يصلح الدين النصرانى لقيادة البشرية إلى قيام الساعة ـ فكان لابد من الإسلام بعالميته وشموله وصلاحيته لكل زمان ومكان.

---

(١) نحو مجتمع إسلامى ـ سيد قطب ص ١٣٢ دار الشروق.

(٢) سفر التثنية الإصحاح ١٥ الفقرة ٩/٧ وسفر اللاويين الإصحاح الخامس والعشرين الفقرة ٣٩/٣٢ وانظر الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ص ٣٦.

بعض خصائص الرسالة الخاتمة:

بعد أن استعرضنا نماذج من الأمم الموجودة قبل الإسلام نخرج بنتيجة لازمة ـ تتمثل فى أن الكون كله كان فى انتظار رسول. هذا الرسول الخاتم استحقت رسالته الخلود ودعوته العالمية للخصائص التى تميزها عن الأديان السابقة اليهودية، والنصرانية والديانات الوضعية كالفارسية والهندية ـ هذه الخصائص تتمثل فى الأتى:

أولا: التوحيد الخالص.

جاء محمد صلى الله عليه وسلم فدعا إلى التوحيد الخالص ـ الذى نادى به الأنبياء من قبله يقول تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾(١)

ويقول عز وجل ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾(٢)

هذا التوحيد الخالص ـ الذى ينفى الوسائط بين الله عز وجل وبين عباده فلا أصنام، ولا أوثان، ولا أحبار، ولا رهبان يحللون ويحرمون، ويعطون ويمنعون بل الكل يتوجه إلى الله فى عبادته والكل يسأل الله بلا وسيط ولا شفيع، والكل أمام الله سواسية لا فرق لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح.

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالإسلام الذى نادى بالأصول العقدية فى دين الله الواحد واستبقى الصالح من المبادئ والتشريعات والنظم فى الرسالات السابقة، وأكمل الناقص منها وأتمه ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾(٣)

إنه الدين الكامل التام الذى لا يجزئ الإنسان بين إلهين اثنين إله الخير والنور، وإله الظلمة والشر كما فى المجوسية إنه الدين الذى يفسر للإنسان كل القضايا الكبرى التى تشغل باله فى كل زمان ومكان مثل قضية الألوهية قضية الكون،

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٥.

(٢) سورة النحل الآية ـ ٢ ـ

(٣) المائدة الأية ٣ وانظر نحو مجتمع إسلامى ص ١١٠ ـ سيد قطب دار الشروق.

وقضية الإنسان، وقضية النبوة وقضية المصير، وإن نظرة على كل مشكلة من تلك المشكلات فى الأديان السابقة على الإسلام ترينا الفرق الشاسع والبون البعيد بين نظرة الإسلام وكما له وتمامه وبين نظرة هذه الأديان.

إنه الدين الكامل الذى يخاطب كل ملكات الإنسان ويأخذ منها دليلا وشاهدا على صدقه إذا تخلص هذا الإنسان من أهوائه وميوله وتجرد للحق وطلبه إنه الإسلام الذى يخاطب العقل والوجدان والشعور[1]

إنه الدين الذى يطلب من الجميع أن ينضووا تحت لوائه ويأخذوه بشموله فلا يؤمنون ببعضه ويكفرون بالبعض الآخر.

إنه الإسلام الذى ارتضاه الله للبشرية جمعاء ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[2]

يقول تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[3]

ثانيا: الشريعة العادلة:

استحق الإسلام دون غيره أن يكون الرسالة الخاتمة والشريعة الخالدة العادلة فليست أحكامها لأمة دون أمة، ولا مبنية على أعراف قوم مخصوصين أو عوائد زمن محدود بل هى مبنية على الفطرة التى لا تتغير بالزمان أو المكان ـ ومن ثم لزم أن تكون تلك الشريعة أحكامها صالحة ومصلحة لكل زمان ومكان[4]

ثم إن الشريعة التى جاء بها الإسلام جاءت وسطًا مستمدة تعاليمها من الله العليم الخبير ـ فهى وسط فى التحليل والتحريم بين اليهودية التى أسرفت فى التحريم بسبب الظلم الحاصل من أتباعها يقول تعالى ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[5]

---

(١) الخصائص العامة للإسلام ص ١١٣/١١٤/١١٥.

٢) سورة آل عمران الآية ١٩.

(٣) سورة آل عمران الآية ٨٥.

(٤) مبادئ الإسلام للمودودى ص ١٦١.

(٥) سورة النساء الآية ١٦٠/١٦١.

وجاءت وسطا أيضًا بين المسيحية كما آلت إليه والتى أسرفت فى الإباحة حتى أحلت الأشياء المنصوص عليها فى التوراة. مع أن الإنجيل صرح بأن المسيح لم يجىء لينقض ناموس التوراة بل جاء ليكمله ومع هذا أعلن "بولس" ومن بعده أتباعه بأن كل شىء طاهر للطاهرين [١]

على العكس من ذلك جاءت الشريعة بمنع الغلو فى الدين وإبطال جعله تعذيبًا للنفس بإباحة الطيبات والزينة بلا إسراف ولا كبرياء يقول تعالى ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾[٢]

والقرآن ينهى أهل الكتاب عن الغلو فى الدين يقول تعالى **﴿يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم﴾** [٣]

والمسلمون أولى بالنهى من أهل الكتاب ـ لأن الإسلام دين الرحمة واليسر وهو مصداق لقول النبى صلى الله عليه وسلم بعثت بالحنيفية السمحة [٤]

وقد لخص الإمام محمد عبده رحمه الله العدالة التى لم يشهد التاريخ مثالا لها فى قوله "كانت الأمم تطلب عقلا فى دين فوافاها، وتتطلع إلى عدل فى إيمان فأتاها فما الذى يحجم بها عن المسارعة إلى طلبتها، والمبادرة إلى رغيبتها؟

كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت الطبقات بعضها على بعض بغير حق، وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشئون الأدنين متى عرضت دونها شهوات الأعلين فجاء دين يحدد الحقوق، ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال، ويسوغ لامرأه فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير، وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجدًا فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت

---

(١) الخصائص العامة للإسلام ص ١٤٦.

(٢) سورة الأعراف الأية ٣١/٣٢.

(٣) سورة النساء الآية ١٧١.

(٤) الوحى المحمدى ـ ص ٢٦٨/٢٦٩ محمد رشيد رضا ـ الطبعة التاسعة المكتب الإسلامى بيروت.

الشكوى إلى الخليفة فورد أمره برد بيتها إليها مع لوم الأمير على ما كان منه، عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بن أبى طالب أمام القاضى وهو من نعلم من هو؟

ويستوقفه معه للتقاضى إلى أن قضى الحق بينهما [١]

هذا جزء يسير من عدالة الشريعة بين المسلم والمسلم، وبينه وبين غير المسلم ولنعرض هذا النموذج الفذ فى ظل الحكم الإسلامى لنبرهن به على عدالة الشريعة التى يحتكم إليها المسلمون من جهة ومن جهة أخرى نرد على العلمانيين وأشباههم الذين يصفون الحكم الإسلامى مما هو منه براء.

يقول السير توماس أرنولد ـ "لما حشد الإمبراطور هرقل جيشا ضخما لصد قوات المسلمين كان لزاما على المسلمين نتيجة لما حدث أن يركزوا كل نشاطهم فى المعركة التى أحدقت بهم فلما علم بذلك أبو عبيدة أمر بأن يرد على أهل الذمة ما أخذ منهم من جزية وكتب إلى النصارى قائلا إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذ منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم "فما كان من النصارى إلا أن دعوا بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا "ردكم الله علينا ونصركم عليهم" أى على الروم "فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شىء بقى لنا [٢]

وهذا غيض من فيض ـ ملئت به كتب التاريخ وتناقلها المحب والمبغض ـ ونظرا لعدالة هذه الشريعة استحق الإسلام أن يكون الدين الخاتم وأن يكون للعاملين كلهم حيث لا تصلح شريعة اليهود، ولا تعاليم النصارى ولله الحجة البالغة ـ على الناس جميعا.

ثالثا: الشمولية والوسطية:

إن الإسلام كدين خاتم ـ لابد أن يكون شاملا فهو يحكم الإنسان وتصرفاته فى كل حالاته فى خاصة نفسه وفى علاقته بربه وفى صلة الإنسان بأسرته وبمجتمعه الذى يعيش فيه وعلاقات الدول بعضها ببعض. الإسلام ينظم كل هذه العلاقات،

---

(١) رسالة التوحيد ص ١٨٨ ـ الناشر دار المعارف.

(٢) الدعوة إلى الإسلام ص ٧٩.

وذلك ببيان الأصول والمبادئ العامة التى تقوم عليها والقواعد والقوانين والنظم التى تحكمها على اختلاف أنواعها [١]

ثم إن الإسلام من ناحية أخرى متسق مع حقائق العلم، ولا اختلاف مع منطق الفكر وأهم ما يميز الإسلام هو الوسطية بين مطالب البدن، ومطالب الروح بين مصالح الدنيا وسعادة الآخرة وهذا معنى جعل أمة الإسلام أمة وسطا.

يقول سبحانه ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[٢]

فأمة الإسلام أمة وسط بين الذين تغلب عليهم التعاليم الروحية وتعذيب الجسد وإذلال النفس والزهد كالهندوس ورهبان النصارى، وبين الذين يغلب عليهم التعالى والمنافع المادية كاليهود[٣]

بهذا الشمول وتلك الوسطية امتاز الإسلام عن غيره من الأديان بأن يكون الخاتم وأن يكون للعالم كله وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[٤]

---

(١) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ٥٧/٥٨.

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧، سورة البقرة الآية ١٤٣.

(٣) الوحى المحمدى ٢٦٧.

(٤) سورة الأنبياء الآية ١٠٧، سورة البقرة الآية ١٤٣.

obeikandl.com